الإسلام في مواجهة النسوية

تقابل في الرؤية والأهداف

محمد لغنهاوزن*

خلاصة:

تعرف النسوية غالباً بأنها نهضة تهدف إلى إعطاء المرأة حقوقاً مساوية بالكامل لحقوق الرجل. والأمر الأكثر إثارة للانتباه في النسوية هي تجاوز هذه الحركة وسعيها إلى ما هو أكثر من التساوي بين الجنسين أمام القانون، بل تسعى النسوية إلى إعدام وإزالة كل الفوارق بين الجنسين على مستوى الأدوار الاجتماعية المبنية على التفاوت الجنسي بينهما. وهذا ما يميز بين النسوية وبين غيرها من الحركات المشابهة.

وتهدف هذه المقالة إلى إبداء وجهة نظر خاصة في المسائل الفلسفية والكلامية المرتبطة بالإسلام كمقدمة ومدخل إلى الموضوع، وبعد ذلك سوف تعالج التصورات الكلية للفلسفة النسوية بالمقارنة مع الفلسفة الإسلامية لتثبت التقابل بين النظريتين، وعدم إمكان التوفيق بينهما. وأخيراً سوف يشار إلى النهضة النسائية الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: الإسلام – النسوية – الجنس – الإلهيات النسوية – الاشتراكية – المساواة.

مقدمة:

أدت النسوية في النصف الثاني من القرن العشرين إلى تغييرات أساسية في الفكر الغربي، الأثر الذي لم يكن لغيرها من

* دكتوراه في الفلسفة الغربية وعضو الهيئة العلمية في مؤسسة الإمام الخميني للتعليم والتحقيق – قم.

الحركات الاجتماعية على الآداب والعادات والتقاليد الاجتماعية. في هذه النهضة (النسوية) نظر إلى الثورة الجنسية والحرية بوصفها ثورة على قيود الفصيلة. وقد أدت هذه النهضة إلى تشجيع المطالبة بحرية المثالية الجنسية وقوننة أوضاعهم المدنية والاجتماعية، وكان من نتيجة ذلك أيضاً التخفيف من القيود الرقابية على المطبوعات وزيادة نشر ما كان يعد نشره مستهجناً قبل ذلك.

وفي الحديث عن الآثار المترتبة على هذه الحركة يمكن الإشارة إلى تفكيك الأسرة بمعناها التقليدي، وزيادة معدلات الطلاق، وارتفاع نسبة المواليد بطريقة غير مشروعة بحيث وصلت في البلاد الاسكندنافية إلى نصف عدد الولادات وفي أمريكا إلى الثلث.

وقد تم كسر كثير من القيود والقواعد التي كانت تتحكم بالسلوك الجنسي بصورة متسارعة ومدهشة، ولم تقتصر «الثورة الجنسية» على إلغاء الرقابة (سانسور)؛ بحيث أوصي أصحاب الفنادق بعدم التدخل في «الأمور الشخصية» للنزلاء بعد أن كانوا ممنوعين من استضافة غير الأزواج في غرفة واحدة؛ وواجهت المحاكم مسائل وقضايا ترتبط بالزواج أو شبه الزواج حول قواعد الملكية لهذا النوع من الأشخاص المرتبطين ببعضهم. وقد نتج عن كل ذلك آثار انعكست سلباً على طبيعة ومفهوم الأسرة.(١)

وفي ظل هذه الأجواء، ازداد حضور النساء في أماكن العمل وميادين السياسة والجامعات، ما جعل النسويين يجدون بسهولة من يستمع إلى خطابهم الصريح. ولم تكن التحولات المذكورة أعلاه صنيعة الحركة النسوية والنسويين وحدهم، بل كان للشباب الناقم على المؤسسات الاجتماعية القديمة وتأييد الفكر اليساري أثر عظيم في إيجاد هذه التحولات. وبتقديري أن النسوية تهدف في ما تهدف إليه من خلال رفض ربط الدور الاجتماعي بالذكورة والأنوثة، إلى تدمير كيان الأسرة وإشاعة المثلية وغيرها من العلاقات الجنسية غير المشروعة.

ولم تنج اللغة وطرائق التعبير الأدبي من سطوة النسوية؛ حيث نجح التيار النسوي في إنشاء لغة لا تمييز على أساس الجنس فيها، أي لغة غير جنسية (Non Sexist Language) ونتيجة ذلك كانت زيادة استخدام ضمير المؤنث بشكل ملفت، في المسرحيات والإعلان التجاري وغير التجاري كإعلانات التوظيف في المؤسسات الحكومية وغيرها، وكان ذلك من أبرز الأبواب التي نفذت منها النسوية إلى الأذهان.

وعملت النسوية على الترويج بمبادئها خارج العالم الغربي مستفيدة من القدرات

المتاحة لها، وفي سبيل الوصول إلى هذا الهدف عملت على تضعيف الثقافات المحلية للبلدان المستهدفة بدعايتها. ولم يكن الأمر بهذه المثابة من السهولة بل واجهت مقاومة من قبل هذه الثقافات وما زالت إلى الآن، ومن بينها الثقافة الإسلامية؛ ولذلك نجد لزاماً علينا في هذه المقالة الإشارة، رغبة منا في الوضوح ورفع الإبهام، الحديث عن الحركة النسوية وانقسامها وتاريخها وأهدافها وماهيتها، وقبل ذلك لا بد من الحديث عن التصور الإسلامي لدور المرأة لنخلص بعد ذلك إلى المقارنة بين الإسلام والنسوية لإثبات عدم التلاقي بين الفكرين.

النسوية، لمحة تاريخية موجزة:

أ- التمايز بين النسوية وغيرها من الحركات النسائية.

منذ أن ارتكب الإنسان الخطيئة الأولى والمرأة واقعة تحت ضغط أمواج من الظلم ما زالت إلى الآن تجاهد من نيره. ويمكن تسمية كل تحرك يهدف إلى رفع الظلم والحيف اللاحق بالمرأة عبر التاريخ بـ «نهضة النساء». وبهذا المعنى يمكن عد الإسلام واحدة من المحاولات الهادفة إلى تحقيق ذلك الأمر المهم من خلال الأوامر والنواهي التي أقرتها الشريعة الإسلامية لرفع الظلم عن المرأة. ولا يخفى أن المرأة الغربية لا تنظر إلى الإسلام بهذه النظرة وتقصر النظرة الغربية وصف «نهضة المرأة» على المحاولات الغربية الهادفة إلى تطوير وضع المرأة في المجتمع الغربي.

إن الثورة الصناعية التي شهدها الغرب في القرن التاسع عشر وارتفاع معدلات الهجرة من الريف باتجاه المدن حوّل المرأة إلى قوة عاملة خارج إطار الأسرة، بينما كانت في الريف تعمل داخلها وتشارك سائر أعضاء الأسرة في الكسب وتحصيل لقمة العيش. في ذلك العهد كانت المرأة محرومة من أي نشاط سياسي، ومما تجدر الإشارة إليه أن حقوق الإنسان التي دعت إليها الثورة الفرنسية هي حقوق الرجل وحده، والتحول الأساس الذي حصل إثر ذلك في عصر الأنوار هو توق المرأة إلى الخلاص من استعباد الرجل والاستقلال عنه، وأخذ فرص مساوية لفرص الرجل في السياسة والعمل والاقتصاد والتعليم.

تعرف النسوية غالباً بأنها حركة تهدف إلى إعطاء المرأة حقوقاً مساوية لحقوق الرجل. والأمر الأكثر إشارة للانتباه في النسوية هي تجاوز هذه الحركة مسألة المساواة وسعيها

إلى ما هو أكثر من المساواة أمام القانون؛ أي إلى إعدام كل الفوارق بين الجنسين على مستوى الأدوار الاجتماعية المبنية على الاختلاف في الجنس بينهما. وهذا ما يميز النسوية عن غيرها من التيارات والحركات النسائية.[٢] ومع ذلك، فإن الحركة النسوية تشمل في من تشمل عدداً كبيراً من الكتاب والناشطين المختلفين في كثير من المسائل الفلسفية والسياسية والأخلاقية، ولا يجمعهم سوى شعار إزالة الفروقات المبنية على الجنس. وبناء عليه، ربما يمكن اعتبار النسوية فرعاً من الحركة المطالبة بحقوق المرأة، رغم وجود شيء من الغموض عند بعض الكتاب في استخدامهم لمصطلح النسوية(Feminism).

وسوف نركز في ما يأتي من هذه المقالة على النسوية في بعديها السياسي والكلامي (الإلهيات) رغم وجود أبعاد أخرى تستحق الاهتمام، مثل: البعد النفسي، القانوني، والنقدي والأدبي.

ب- النسوية والاشتراكية:

ربما يكون تشارلز فوريير (Charles Fourier 1772-1837) أول من استخدم مصطلح (Feminism) (النسوية).

وتبنى أتباع هنري دوسان سيمون فكرة أصالة الخنثى (Androgyny principle) وبناء على هذا الأصل آمنوا بأن الوجود الإنساني انطلق من موجود يحمل خصائص الأنوثة والذكورة. ورفض النسويون الاشتراكيون تقسيم العمل على أساس الجنس، ودعوا إلى تقاسم مراكز العمل مناصفة بين الرجال والنساء.

وبعد تغلب الماركسية على غيرها من الاشتراكيات ألقت هذه الكلية بطلابها على النسوية، وقد طرح أنجلز تصوراته حول الموضوع في كتابه «أهل العائلة» عام ١٨٤٤م. وقد دعا أنجلز في كتابه هذا إلى نبذ فكرة العائلة وشيوعية الجنس والأطفال لكي يبقى سلطة لفرد آخر.

وبالرغم من فقدان الاشتراكية لكثير من بريقها في الآونة الأخيرة، إلا أن الفكر الاشتراكي ما زال له من يؤيده ويدعو إليه في الجامعات حتى الأميركية منها. ويلاحظ المتتبع للفكر اليساري ميلاً منه نحو النسوية وتأييداً لها، كما يلاحظ وجود آثار ماركسية في معظم الكتابات النسوية.

وربما يكون الدرس الأكثر أهمية الذي استفاده النسويون من الماركسية هو استخدام

أسلوبها في الجدل، وقد نفذت النسوية إلى عقول الكثيرين وتحولت إلى ما يشبه الإيديولوجيا. حتى إنك تجد أن بعض المراجع المحترمة من الناحية العلمية لا تقتصر في حديثها عن النسوية على التوصيف بل تدعو إلى رفض كل تمييز جنسي بين الرجل والمرأة؛ وعلى أي حال تبدو هذه النزعة الأيديولوجية بوضوح في كثير من الكتابات النسوية، ومن ذلك أنهم يبررون أفكارهم بواسطة مفاهيم ماركسية كصراع الطبقات وغيرها من المفاهيم المشابهة.

ج- الفلسفة النسوية:

ربما يمكن القول من دون أي تردد: إن أشهر الفلاسفة النسوية على الإطلاق هو سيمون دوبوفوار (١٩٠٨-١٩٨٦). فقد نشر عام ١٩٤٩ كتاب «الجنس الثاني» وحلل فيه العلاقة بين المرأة والرجل على أسس وجودية - ماركسية. وبما أن الوجودية تؤكد على قضية حرية اختيار الإنسان لماهيته، يدعي دوبوفوار أن الإنسان يختار جنسه بإرادته أيضاً، ويؤمن بأن علم الحياة يستخف بنا معشر البشر، حيث إنه حرر الإنسان الذكر من قيود توليد المثل بينما أعطى هذه الحرية للمرأة؛ ولذلك فإنه يعتقد بأن الأنوثة تمثل سداً في وجه التحول إلى إنسان حقيقي.

وقد انتقد النسويون المتأخرون دوبوفوار لتحقيره لجسد المرأة ورأوا أنه يريد «ترجيلها»، رغم اعترافهم بأن ما طرحه دوبوفوار من أفكار كان له أثره المهم على الكتابات النسوية اللاحقة، مثل: تمييزه بين الجنس والجنوسة .(Sex Gender) وقد استفاد النسويون المتأخرون من أفكار ميشيل فوكو وجاك دريدا لتحليل كثير من الموضوعات المرتبطة بالمرأة، كعلم نفس المرأة والظلم السياسي اللاحق بها وما شابه ذلك، ومن أبرز ما استخدموه من طرائق هو هذان العلمان الحينالوجيا (Genalogy) من فوكو، والتفكيك (Deconstruction) من دريدا. بينما نجد أن سيمون دوبوفوار أنطلق من فلسفة سارتر الوجودية.

وعلى أي حال لم يقتصر تعاطي النسويون مع الفلسفة على الاستفادة منها فحسب، بل كان لهم مواقف وآراء في كثير من القضايا الفلسفية، ولذلك نجد كثيراً من القراءات النسوية لموضوعات عدة من قبيل: القراءة النسوية لتاريخ الفلسفة، فلسفة العلم النسوية، نظرية المعرفة النسوية، الفلسفة السياسية النسوية، الأخلاق النسوية، وحتى الأنطولوجيا النسوية. ويشار في هذا المجال إلى تأسيس الرابطة الفلسفية النسائية عام ١٩٧٢م ونشرها لمجلة «هيباتنا» تيمناً بإحدى الفيلسوفات اليونانية.

وقد وضع النسويون نصب عيونهم هدفين من دراستهم لتاريخ الفلسفة، الأول منهما هو السعي لكشف التوجه الذكوري أو المعاداة في تاريخ الفلسفة بدءاً من أفلاطون وأرسطو وصولاً إلى جان رالز، وكان لديكارت السهم الأوفى من النقد في هذا المجال.(٣)

والهدف الثاني هو تظهير دور المرأة في العمل الفلسفي، وكان من نتائجه نشر كتاب في ثلاثة مجلدات بعنوان: «تاريخ النساء» لـ «ماري إلن وليث».(٤)

أما الاتجاه النسوي في فلسفة العلم وعلم المعرفة، فقد كان يهدف إلى إبطال دعوى حيادية العلم تجاه الجنوسية، وإبراز الخلفية الجنوسية في كثير من مؤلفات العلماء وآثارهم. وقد حاول أصحاب هذا الاتجاه إثبات أن النظر إلى العالم بنظرة أنثوية من شأنه أن يعطينا نتائج علمية مختلفة عنها بالنظرة الذكورية.

وفي فلسفة الأخلاق، يهتم النسويون بالبعد السياسي من المسألة، وبعبارة أخرى ينظرون إلى السلطة أكثر من نظرتهم إلى الحسن والقبح الأخلاقيين، وغالباً ما يوجهون نقدهم للأخلاق التقليدية؛ لأنهم يرون أنها أنتجت أو بررت سلطة الرجل على المرأة. ومن ذلك دعوة آليسون جاغر (Alison Jagger) إلى ضرورة أن تقترح فلسفة الأخلاق برنامجاً لتخليص المرأة من سيطرة الرجل.(٥)

ولقد طرحت السحاقيات النسويات فلسفة الأخلاق النسوية على ضوء هذه القضية، وهي: أن المرأة لا يمكن أن تؤسس لعلاقة مع الرجل دون أن تقع تحت سلطته وفي قبضته ولذلك فإن الهدف الأساس والأسمى هو بناء فلسفة الأخلاق على أساس البحث عن الحرية ومعرفة الهوية الذاتية للإنسان وليس على أساس الفضيلة، وأيضاً على قاعدة الاختيار وليس الواجب والتكليف.(٦)

ورغم عدم كون كل النسويين مثليين، إلا أن المثلية كانت بمثابة مؤشر بارز على رفض الدور التقليدي لكل من المرأة والرجل.

ووجه النسويون انتقاداتهم لكل من يؤمن بوجود أخلاق خاصة بالرجال وأخرى للنساء. وممن نالتهم سهام النقد عالمة نفس الأخلاق المعروفة كارول جيلجين (Carol Gilligan) التي رأت أن طريقة الاعتناء والمتابعة هي أكثر انسجاماً مع التنمية الأخلاقية للبنات، في مقابل أستاذها لورانس كوهلبرغ الذي اعتمد هذه الطريقة لشرح وتوضيح كيفية التطور الأخلاقي للبنين.(٧)

ورأى النسويون أن التمسك بهذه الطريقة تكرس النظرية التقليدية القائلة بوجود فرق بين الرجل والمرأة، ومن هنا رفضت النسوية أي تصور يميز بين الرجل والمرأة في فلسفة الأخلاق، لأن دعوة المرأة إلى وضع الأمومة في أولوياتها سوف يجهض كل محاولة للتخلص من عقلية المجتمع البطركي الذكورية. ومن هنا، يمكن القول: إن الرسالة الأخلاقية للنسوية تختصر في إعادة النظر في التاريخ الفكري للإنسانية لنقد ومحاربة كل توجه ذكوري فيه، أو كل توجه يعطي للمرأة خصوصيات تختلف عن خصوصيات الرجل.

د- النظرية السياسية للنسوية:

بدا أن النظرية السياسية للنسوية تتوافق مع الماركسية؛ حيث يرى ماركس وأنجلز أن النظام الطبقي هو أصل كل المظالم الاجتماعية، وان النظام العائلي هو انعكاس لهذا النظام الرأسمالي المقوض له كونه متفرعاً عنه.

ونجد أن بعض النسويين قد تبنوا الموقف الماركسي من العائلية بحرفيته، بينما نجد آخرين رأوا أن النظام العائلي هو الأساس والمنطلق للنظام الرأسمالي وليس نتيجة له؛ ولذلك نجد أن كيت ميليت (Kate Millit)، وهو من الأعضاء الناشطين في حركة تحرير المرأة، يصرح بأن بناء الظلم الاجتماعي في المجتمع الإنساني يتأسس على سلطة الرجل وليس على الرأسمالية.

وفي التأريخ لتطور الحركة النسوية، يتبنى بعض الباحثين أن هذه الحركة مرت بمراحل ثلاث هي:

المرحلة الأولى الحركات الاشتراكية وحركة تحرير العبيد في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ومن آثار الفكر التي تعود إلى هذه المرحلة يشار إلى كتاب أنجلز «أصل العائلة»، وكتاب جون استيوارت مل «خضوع المرأة» وكتابات ومحاضرات إيما غولدمن الأميركية من أصل روسي؛ وربما يدخل بعضهم في نطاق هذه المرحلة كتابات دبوفوار أيضاً. ومن هنا فإن النسوية في هذه المرحلة ليست سوى حركة سياسية اجتماعية.

المرحلة الثانية هي للنسوية التي طرحت في العقدين السادس والسابع من القرن العشرين، والسمة البارزة في هذه المرحلة هي التطرف، فبينما كان يسعى نسويو المرحلة

الأولى إلى رفع حالات التمييز القانوني بين الرجل والمرأة نجد أن أهل المرحلة الثانية يرون الحديث عن دور اجتماعي للرجل وآخر للمرأة من مخلفات المجتمع البطركي، ولذلك لا بد من التخلص منه ومن كل المفاهيم المشابهة له.

المرحلة الثالثة تعود في تاريخها إلى العقد الثامن والتاسع من القرن العشرين، وتميزت هذه المرحلة عن سابقاتها في أن النسويين المتقدمين كانوا يتحدثون عن حقوق المرأة وتحريرها بشكل كلي وعام، بينما في المرحلة الثالثة نجد كثرة في الحديث عن أنواع مختلفة من التأنيث تختلف باختلاف الملل والأعراق والطبقات؛ وينظرون إلى هذا الأمر بوصفه لازماً طبيعياً لرفض التصورات التقليدية حول المرأة. ومن هنا يعتقد مؤسسو هذه المرحلة ضرورة استبدال الشعار الواحد حول تحرير المرأة بشعارات عدة، فالحرية عندهم بمثابة تنوع للفرص الموجودة لتحقيق علاقات جنسية مختلفة، وأدوار مرتبطة بالجنس كذلك.

ويمكن تقسيم الحركة النسوية على أساس آخر فتكون المراحل على النحو الآتي: النسوية الليبرالية، المتطرفة، الاشتراكية، وما بعد الحداثة. وترتد الأولى في جذورها إلى مؤلفات ماري والستون كرافت (Mary Wollstone Craft) (١٧٥٧-١٧٩٧) وجان استيوارت مل (John Stuart Mill) (١٨٠٦-١٨٣٧) اللذان يطالبان بالمساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة. في العقد السادس من القرن العشرين وضع النسويون الليبراليون في أمريكا نصب أعينهم مجموعة من المطالب وسعوا للحصول عليها، وهذه المطالب هي:

حق الإجهاض، الدفاع عن حقوق الأم الموظفة، تيسير سبل الحصول على دور الحضانة للأطفال، الحصول على تمثيل نسائي أكبر في الدولة، السوق، والجامعة. وقد أفضت هذه المطالب إلى سن مجموعة من القوانين في مجال التوظيف تعتبر الأنوثة والانتماء إلى أقلية مرجحاً من المرجحات الوظيفية، والهدف من هذه القوانين هو الحد من سوء توزيع الوظائف. والخلفية التي انطلقت منها النسوية الليبرالية هي المشاركة في الإنسانية بين الرجل والمرأة، بينما تنطلق النسوية الراديكالية من خلفية مختلفة تماماً، تمجد وتبرز الاختلاف الموجود بين تجارب كل من الرجل والمرأة؛ ولذلك يرى هؤلاء أن ضرب تجارة المرأة أدى إلى تلون كل شيء من الثقافة والأدب إلى العلم والقانون والسياسة بلون ذكوري مدافع عن حقوق الرجل، وحاكٍ عن عواطفه ومشاعره؛ وبالنسبة للنسوية الاشتراكية فقد تكلمنا عليها في ما مضى من هذه المقالة فلا نعيد وأما نسوية ما

بعد الحداثة فيبدو أنها تسمية أخرى للمرحلة الثالثة من مراحل النسوية المشار إليها سابقاً.

هـ- الإلهيات النسوية

بدأت موجة الإلهيات النسوية مع بداية العقد السابع من القرن الماضي من خلال مجلة كونسيليوم (Concilium) وانعقدت المؤتمرات الأولى للبحث في هذا الشعار في أمريكا، وبعد ذلك دعا المجتمع العالمي للكنائس إلى مؤتمر في برلين حول «الجنسانية» (Sexing) أي التمييز على أساس الجنس، وبعدها طبعت ماري دالي (Mary Daly) كتابها أكبر من الله الأب (Beyond God the father).(٨)

وترتبط فكرة الإلهيات النسوية بإلهيات التحرير بروابط وثيقة على مستوى التاريخ والتنظير، وكلا المفهومين متأثر بالماركسية رغم أنهما يتصديان لنقدها. وهذان المفهومان ينظران إلى الدين بوصفه وسيلة من وسائل التحرير؛ الإلهيات النسوية تنقسم إلى شعبتين معتدلة ومتطرفة، في الأولى يسعى أصحابها إلى مقاربة الأديان بشكل مختلف لتزال عناصر ترجيح كفة الرجل على المرأة، بينما تتجاوز الثانية ذلك لتتوصل إلى رفض محورية الرجل في الأديان، وتستبدل عبادة الإله والإيمان به إلى عبادة الآلهة (المؤنثة) بل حتى السحر.

ومن المجالات التي أخذت قسطاً من الاهتمام العلمي للنسوية المعتدلة مجال تاريخ الكنسية، لذلك تدّعي اليزابيت شوسلر فيورنزا (Elisabeth Schuss Fioranza)أن المسيحيين الأوائل كانوا يعتقدون بالمساواة بين الرجل والمرأة، ولكن عندما بدأت تشكيلات الكنيسة تأخذ طابعها الرسمي بدأ التمييز لمصلحة الرجل، ثم سرى ذلك إلى أبحاث الإلهيات.(٩)

إن المنهج الذي اعتمد عند شوسلر فيورنزا هو منهج اجتماعي بشكل عام ويعتمد على لاهوت التحرير. ويمكننا أمام النتائج التي انتهت إليها هذه الأفكار النقدية أن نعتبرها معتدلة نسبية، ومن بين هذه الأفكار يشار إلى ضرورة انتهاء النقد النسوي إلى إجراء عملية إصلاح في الكنيسة.(١٠) والنسويون الذين اعتمدوا طرائق التحليل النفسي كانوا عادة أكثر تطرفاً؛ ومن بين هؤلاء تجدر الإشارة إلى كريستا مولك (Christa Molack) التي تعد من أتباع مدرسة سي. جي. يونج (C.G.Yong) وتعتقد بأن الدين الذي يعطي للرجل سلطة لا بد أن يضمحل فيه البعد الأنثوي.

وعلى ضوء هذا التصور اعتبر أنبياء بني إسرائيل عصاة وثواراً في وجه الإلهة (The Great Goddess). وقد تبنى النسويون الذين أخذوا بالتحليل النفسي هذه النظرية ورفضوا نظرية المساواة النسوية (Equality Feminism) وروجوا في مقابلها لمركزية المرأة (Feminism Gynocentric)، وهؤلاء وصلوا في تطرفهم إلى نبذ المسيحية ورفضها بدل إصلاحها. وبالرغم من كون هؤلاء أقلية في مقابل الآخرين، إلا أنهم كانوا ذوي تأثير كبير في الحركة النسوية العالمية.

ومن أشهر النسويات في مجال اللاهوت، الراهبة السابقة في الكنيسة الكاثوليكية ماري دالي التي تدعى أحيانا أم اللاهوت النسوي. وهي المرأة الأمريكية الأولى التي حصلت على درجة الدكتوراه في اللاهوت من جامعة فرايبورغ، وكتابها الأول هو: «الكنيسة والجنس الثاني» الذي يعكس بوضوح الكثير من أفكار ونظريات سيمون دوبوفوار، وهي في هذا الكتاب تصنف بين المعتدلين حيث تدعو إلى إصلاح الفكر المسيحي لينسجم مع نظرية المساواة. إلا أنها تجاوزت تيار الاعتدال في أشهر كتبها المعنون: بـ (Beyond God the Father) حيث أثبتت في هذا الكتاب أن اللاهوت المسيحي مؤسس على توجه ذكوري وبالتالي لا يقبل الإصلاح، وفي هذا الكتاب تطرح شعارها المشهور: «إذا كان الله مذكراً فالذكر هو الله»(١١)

وهي تعتقد بأن سلطة الذكر وتفوقه لازم من لوازم عقيدة التثليث المسيحية، حيث إن الشخص الثالث في الثالثوث المقدس هو الإبن والأول هو الأب، ومن هنا فإنها تدعو إلى اعتبار الله كائناً غير شخصي يمثل مركز الوجود والناظم لأجزائه، ما يذكر بتصور بول تيليخ عن الله.

وتقطع دالي في كتابها (Gyn Ecolage: The Meta ethics of Radical Feminism) كل صلة لها بالمسيحية، وتحل محل الإله الآلهة وتعمل على تمجيدها ومدح الاعتقاد بالسحر الذي كان سائداً في العصر الأمومي. وفي هذا الكتاب تدعو بصراحة إلى العلاقة بين المرأة والمرأة، وترفض بشكل قاطع فكرة كون الرجل مكملاً للمرأة وبالعكس. وتتجاوز كل هذه الأفكار في كتابها الشهوة المحضة (The Pure Lust) وتتبنى كون الشهوة فضيلة تمكن الإنسان من الوصول إلى السلطة الكاملة.

وعلى المقلب الفرنسي يشار إلى لوسي إيريغاري ومؤلفاتها في اللاهوت النسوي، وهي تبشر في كتاباتها بالمجتمع الذي تولد فيه نسوية جديدة وامرأة متحررة بالكامل من

سلطة الرجل، وليس مجتمعها المثالي هو مجتمع المساواة فحسب. وهي كما دالي تختلف مع المسيحية لأجل فهمها لفكرة الثالوث وللطابع الذكوري الكامل فيه، وبالرغم من إيمانها بحاجة المرأة إلى الإله إلا أنها ترفض مفهوم الإله المقبول في الأديان الإبراهيمية.

وبحسب لوسي إيريغاري يبقى احترام الإله قائماً ما دام المرء غافلاً عن كون الله قناعاً يستر سيطرة الذكر على العائلة، وأما بعد الالتفات إلى هذه المسألة فإنه سوف ينكشف للمرء أن الذكر استفاد من فكرة الإله لبسط سلطته على المرأة وممارسة الظلم عليها، وعندها لا بد من الشك في الله بدل اعتباره غير مذكر ولا مؤنث كما يصوره لنا الليبراليون.(١٢) ولذلك تعتقد بأن الإله المؤنث وحده هو الذي يمكنه تحرير المرأة وإسعادها مع سائر أفراد المجتمع.(١٣) ولا أدعي أن كل النسويين متطرفون إلى هذا الحد، ولكن على أي حال فإن غير هؤلاء يمكن اعتبارهم من المعتدلين بالقياس إلى هؤلاء فحسب. وفي الحقيقة إن معتدلي اللاهوت النسوي يقبلون التوجهات الكلية العامة للنسوية، ومن ذلك: رفض فكرة التكامل بين الرجل والمرأة، قبول فكرة العائلة غير التقليدية (المثلية) مع أولاد أو من دون أولاد، الأم العازبة، وأيضاً قبول الهرمنوطيقا الهادفة إلى كشف مكامن التمييز على أساس الجنس في النصوص الدينية. وبناءً على الأمر الأخير، فهم يدعون إلى إعادة كتابة النصوص الدينية بهدف استبدال التعبير عن الله من صيغة المذكر إلى صيغة مشتركة أو صيغة ذكورية أنثوية من قبيل الموارد التي يشار فيها إلى الله بوصف «أبونا» فيقترحون استبداله «أمنا وأبونا»...

التعارض بين الإسلام و النسوية:

وفي تقييم العلاقة بين النسوية والإسلام لا يسعني رفض أي أرضية مشتركة بين الاثنين، ولكن الاختلاف واقع في كثير من الأصول والقيم. ومن المشتركات يمكن أن يشار إلى الاشتراك في نبذ أي ظلم أو حيف يمارس على المرأة، فهي صاحبة السلطة على نفسها وأموالها، ولها حق التصرف في ما كسبت، وكذلك يشار إلى الرفض المشترك لمقولة «الله الأب». ومن موارد الاختلاف والتضاد، هو أن الإسلام يرى إلى المرأة بعد العبودية لله أمّاً وزوجة، وكذلك يختلفان في مقولة الله الأم فالله ليس ذكراً ولا أنثى.(١٤)

الشعارات المتضادة بين الإسلام والنسوية

ترفض النسوية كما تقدم فكرة التكامل بين الرجل والمرأة، أما الإسلام فيؤكد هذا المفهوم على أساس الدور الاجتماعي الذي يلعبه الطرفان. والنسوية ترى في الزواج

وسيلة لتسلط الرجل على المرأة، بينما نرى الإسلام يدعو الرجل والمرأة إلى إقامة مؤسسة العائلة على أساس الزواج، ويشرع من القوانين ما يحفظ لكل من الطرفين حقوقه ويحدد له واجباته، وتعطي القوانين الإسلامية سلطة للرجل في إدارة العائلة، الأمر الذي لا تقبل به النسوية بأي حال.

تعتقد أليزابيت مولتمن وندل بأن جوهر اللاهوت البطركي هو سلطة تدل على الارتباط بين العقل والجسم: «**سلطة الإدارة اللاشعورية، سلطة التاريخ على الطبيعة، وتفوق الرجل على المرأة**».(١٥)

والإسلام يرى ضرورة التسليم والانقياد الكامل وفق مشيئة الله، ولا يرى في ذلك أي ظلم يمكن أن يقع على الإنسان في هذا التسليم، بل هو يتكامل من خلاله، بينما يعتقد النسويون بأن المرأة تتكامل من خلال تحررها وعدم خضوعها، ولذلك فهم يرون أن الفضيلة هي: حرية التعبير وإرضاء الميول والرغبات؛ أما الفضيلة في الإسلام فهي الفناء في الله والوصول إلى مقام لقائه، وكبح الميول غير المشروعة.

التكامل، العائلة، الجنسوسة:

يعترض الكثير من مفكري أوروبا على الإسلام؛ حيث إنه يقبل الجنس ثم يضع له القيود. وفي العصر الفيكتوري كان يُنظر إلى الإسلام على أنه دين شهواني حيث يعد القرآن المؤمنين بتلبية كثير من رغباتهم في الآخرة، وانقلبت هذه النظرة في العصور اللاحقة مع فرويد وغيره وصار الإسلام بنظرهم متزمتاً في قيوده التي يفرضها على الجنس. وهاتان النظرتان إلى الإسلام نجدهما في الكتابات النسوية، ويرجع الاختلاف بين النسويين إلى اختلاف التصور الرائج في عصر كل كاتب منهم؛ مثلاً: يرى بعض النسويين أن الدعارة عمل مجاز ولذلك هم يفضلون تسميته بـ «العمالة الجنسية »(Sexual Worke) بدل الأسماء التي تطلق على هذا الصنف من النساء، بينما يرى آخرون أن الدعارة والصناعة الجنسية (Sexual industry) هي تجسيد فاقع لإذلال المرأة. ومن هنا، فإننا نجد بعض النسويين يطالبون بتغيير المجتمعات الإسلامية للوصول إلى تحرير المرأة جنسياً، وآخرون يطالبون بتقييد حرية الرجل في هذه المجتمعات.

و أما عن موقف الإسلام من الجنس، فلا شك أنه يعترف بهذا البعد من الشخصية الإنسانية، ولا يرى في الشهوة رذيلة كما يبدو من بعض النصوص الدينية المسيحية،

ولكنه مع ذلك يشرع عدداً من القيود على تلبية هذه الغريزة والاستجابة لها. ويميز بين الرجل والمرأة في هذه القيود فيعطي للرجل حق تعدد الزوجات ويمنع المرأة من تعدد الأزواج. ولسنا ننكر أن الرجل قد يسيء استخدام هذا الحق في بعض الأحيان، بحيث يكون في ممارسة هذا الحق ظلم يلحق المرأة، ولذلك عندما ينظر النسويون إلى الواقع الاجتماعي للمسلمين يحمّلون الإسلام مسؤولية هذه الممارسات الخاطئة؛ ولكن نقول في الرد على هذه الدعوى وما شابهها: إننا نلاحظ الأمر عينه يحصل في المجتمعات غير الإسلامية من شيوعية وليبرالية ومسيحية وغيرها، أفهل يصح القول: إن كل هذه القوانين تبيح ظلم المرأة؟ بل حتى لو وجد مجتمع خالٍ من أي قانون ينظم العلاقة بين الرجل والمرأة، فسوف يظلم بعض الرجال النساء. ولذلك اعتقد أن المشكلة لا تكمن في القانون بقدر ما تكمن في أخلاقيات الرجل الذي يسيء استخدام القانون لمصلحته، وتوصلاً به إلى مقاصد غير مشروعة.

ورغم كل التشريعات التي أعطت للمرأة الأمريكية حقوقها وحريتها، لا بد من النظر بعين الريبة والشك إلى دعوى أن وضع المرأة الحالي أفضل من وضعها السابق؛ حيث تظهر الإحصاءات أن معدل الفقر بين النساء أعلى منه بالقياس إلى ما مضى، ويزيد في الفقر سهولة إجراءات الطلاق وتحميل الأم مسؤولية إعالة الأطفال. وحذراً من هذه المآزق، نجد في الشرع الإسلامي مجموعة من التدابير أساسها قوامة الرجل على العائلة مع ضوابط تحول دون تجاوز الرجل حدوده في خلال ممارسته لهذا الدور، ولكن مع ذلك حفظ الإسلام للمرأة حقها في المناورة لتحول دون سيطرة الرجل الكاملة على الطلاق. ويبدو لي أن هذه التدابير لهي أفضل بدرجات من التشريعات الغربية التي وإن أعطت للمرأة شيئاً من حقوقها ولكن نتج عنها قصر عمر العائلة، بحيث صار متوسط عمر الزيجات في الغرب بحدود الخمس سنوات تنتهي في الغالب بعلاقة جديدة خارج مؤسسة الزواج.

دور المرأة في الإسلام:

إن من أهم الأدوار التي أعطيت للمرأة في المصادر الإسلامية هو دور الأمومة والزوجية، رغم أننا لا نستطيع حصر دور المرأة بهذين الأمرين، بل فتح الإسلام في وجه المرأة كثيراً من أبواب المجتمع لتحقيق ذاتها من خلالها، وذلك في الاقتصاد والتجارة والعمل، كما في مثال السيدة خديجة(رض) زوجة النبي(ص) وفي السياسة كما في مثال

السيدة فاطمة(ع) بنت النبي(ص). نعم منع الإسلام المرأة من احتلال بعض المناصب كما في إمامتها للرجال في الصلاة.

ويعتقد الغربيون أن القيود التي فرضت على العلاقة بين الرجل المرأة في الإسلام تؤدي بالضرورة إلى منع المرأة من ممارسة دورها في السياسة والاجتماع، وأقدم في هذا المجال نموذجاً يكشف خطأ هذا التصور، وهي حادثة يذكرها مورغان شوستر عن حوادث سنة ١٩١١ في طهران حيث يقول:

في تلك الأيام المظلمة بدأت تروج بعض الشائعات عن وجود ضعف في المجلس النيابي الإيراني في مقابل تهديدات روسيا لإيران، يومها خرجت مجموعة من النساء الإيرانيات مدفوعات بالحماس وحب التضحية في سبيل الوطن من حصار أسوار البيوت قاصدات المجلس النيابي، متجلببات بالثوب الأسود والخمار الأبيض. تجمدت النسوة أمام البرلمان وطالبن بلقاء رئيس المجلس فما كان منه إلا أن استجاب لرغبتهن واجتمع بهن، في هذا الاجتماع شهرت كل واحدة منهن مسدساً كانت تخفيه تحت ثيابها وكشفن عن وجوههن، وهددن المجلس ورئيسه بأنهن سوف يقتلن أبنائهن وأزواجهن ثم ينتحرن إن بدا من النواب ضعف أو خور في مواجهة العدو الخارجي.(١٦)

وعلى أي حال، ليست هذه هي المرة الوحيدة التي يحدث فيها ذلك في التاريخ الإسلامي، فقد كانت المرأة ذات دور فاعل في التاريخ الإسلامي في كثير من عصوره، رغم عدم تسلمها سدة القيادة بشكل مباشر وبالنظر إلى القرآن الكريم يتبين لنا أن المسألة ليست مسألة تاريخ فحسب بل القرآن مليء بدعوة المرأة للقيام بدورها الاجتماعي والسياسي، وضمن لها الأجر والثواب على ذلك، وجعل المعيار والدافع إلى القيام بالعمل هو رضا الله لا المنفعة الشخصية المؤقتة؛ وقد مجد الإسلام نموذجين للمرأة العاملة وقد يكون ذلك بهدف بيان القدوة الصالحة، هما: مريم(ع) وقضية حملها من دون زوج ودعوتها إلى تحمل اللوم والعتاب من قومها، والثانية هي زوجة فرعون التي اشترت بالروح إيمانها بموس.

بلى، لقد أولى عناية خاصة لدوري الزوجية والأمومة وهذا ما يثير حفيظة النسويين، لأن مشروعهم الأساس هو تحرير المرأة من هذين الدورين، ففي التحرر منهما يكمن تقدم المرأة باعتقادهم، ولذلك على المرأة أن تحقق ذاتها في ميدان العمل والعلاقات الجنسية غير التقليدية. وفي المقابل يهتم الإسلام بالزواج ويرى فيه مصلحة للأكثرية الساحقة من

نساء العالم رغم عدم رفضه أو تحقيره لممارسة الأعمال التجارية أو الاجتماعية. ولا تختلف المرأة كثيراً عن الرجل في ممارستها لدورها الاجتماعي، فهما يمارسان معاً أدوارهما بشكل متكامل فلا زوجة دون زوج، ولا أم من دون أب...

اختلاف الإسلام والاشتراكية:

تدعي الاشتراكية نهاية عصر التقليد وحلول نظام جديد للقيم تتساوى فيه الحقوق والواجبات والفرص بشكل كامل متطرف، الأمر الذي يرفضه الإسلام ويرى فيه افتئاتاً على حقوق عدد من المواطنين.

ولا يخفى ما بين الرؤيتين المادية الاشتراكية واللامادية الإسلامية من تعارض. ويتجلى التعارض في أوضح صوره عندما ننظر إلى الرؤية النسوية الاشتراكية التي ترى في العائلة التقليدية رمزاً من رموز الاستغلال الطبقي، بينما يقدس الإسلام العائلة ويدعو إلى بنائها والمحافظة عليها. وتشترك التيارات النسوية ذات الميل الاشتراكي في الدعوة إلى هدم صرح العائلة التقليدي، ورفض فكرة التكامل بين الرجل والمرأة، والإسلام يخالف كل هذه التصورات ويقف منها موقف الرفض.

التعارض بين الإسلام والفلسفة النسوية:

يقف الإسلام موقفاً رافضاً من كثير من القيم الأخلاقية التي تروج لها النسوية، سواء في ذلك نسوية المساواة بين الرجل والمرأة أم نسوية مركزية المرأة. حيث يروج النسويون لفكرة الاختيار الحر بعيداً عن أي نمط أو دور محدد ترسمه الآداب والتقاليد والأعراف للرجل والمرأة؛ والعدالة في الإسلام هي عبارة عن وضع الأشياء في مواضعها ولا تعني بالضرورة المساواة، وتعيين مصداق العدالة بحسب التصور الإسلامي يحتاج إلى بصيرة نافذة وتأمل وسبر لأغوار حياة المعصومين في التاريخ، وهم النبي(ص) والأئمة(ع).

والبعد الفلسفي الإسلامي كغيره من الأبعاد الفكرية والثقافية هو انعكاس لمفهوم التوحيد، ومن هنا ينظر إلى جميع جوانب الوجود بوصفها تجل للتوحيد، والعقل وظيفته الأساس فهم التوحيد والدفاع عنه. وفي المقابل فإن الفكر الفلسفي النسوي يسير في الاتجاه المعاكس تماماً، فهو بدل السعي لكشف وجوه الاشتراك في الوجود يشتغل على كشف مكامن الاختلاف، وبدل العمل لتحقيق علاقة عادية بين الرجل والمرأة على ضوء

العقل ومقتضياته، تجدهم يعملون بوحي عواطفهم ومشاعرهم، ويرون أن العقل هو وسيلة من وسائل سيطرة الرجل على المرأة ويستخدمون مصطلح (Logo-Centrism) كنوع من الإهانة.

يسعى الفيلسوف المسلم والفلسفة الإسلامية للتغلب على أهواء النفس ومشتهياتها، بينما نجد أن الفلسفة النسوية تروج للمرأة المثالية التي تتأمل في تجاربها الذاتية لكشف جذور الظلم الذي يمارس عليها من خلال التمييز الجنسي، ويدعون المرأة للخلاص من نير ظلم الرجل ولو بإطلاق العنان للميول والرغبات والأهواء.

يسعى الإسلام ويضع نصب عينيه القرب من الله تعالى والتسليم لإرادته، ويحاول أن تكون هذه الروحية هي الروحية الحاكمة على العلاقات الاجتماعية، هذه العلاقات المحكومة لمعيار العدالة الذي على ضوئه تتحقق مقتضيات الوجدان الأخلاقي، والعادات الاجتماعية، وأوامر الله الواضحة والصريحة. أما النسوية، فلا وجود لمفهوم الأوامر الإلهية، بل السعي كل السعي لإحداث ثورة في الأخلاق وانتفاض على تقاليد المجتمع، لأجل تحرير المرأة وإطلاق سراحها من سيطرة الرجل.

الإسلام والفلسفة السياسية النسوية:

في النظرية السياسية الإسلامية ينظر الإسلام إلى الظلم بوصفه معصية لله وخروجاً عن إرادته، والحاكم الذي يستولي على السلطة بالغصب إرضاءً لميوله وأهوائه هو عاصٍ لله بالدرجة الأولى، ويتفرع عن هذه المعصية معصية الظلم الواقع على الرعايا والمحكومين... بينما نرى أن الفلسفة النسوية في مجال السياسة تروج لكون تسليم المرأة لإرادة الرجل هي المعصية الأولى، وبالتالي فإن رفع أشكال الظلم الاجتماعي مرهون لثورة المرأة على سلطة الرجل.

ولما كان هدف الإسلام الأول هو تقريب الإنسان من الله، كان من البديهي اعتبار الهدف الخاص بالنظام السياسي الإسلامي تأمين الأجواء والظروف الملائمة لتحقيق الهدف الأساس وهو القرب عبر العبادة وغيرها من الطاعات، وهذا عمل يحتاج إلى توازن وانسجام اجتماعي تام بين الأفراد والمؤسسات، بل والعادات والتقاليد الاجتماعية. بينما لا تهدف الفلسفة السياسية النسوية إلا إلى الحرية ونبذ كل القيود المؤسسة على التفاوت في الجنس بين الرجل والمرأة، وإقامة نظام اجتماعي وعائلي جديد لا يلحظ أي قوامة لأحد على أحد.

الإسلام واللاهوت النسوي:

لا وجود لفكرة الثالوث المقدس في الإسلام، وبالتالي لا أب ولا ابن، وهذا هو أحد الفروقات الأساسية بين المسيحية والإسلام. وعندما يعبر القرآن عن الله يعبر عنه بصيغة المذكر ومع ذلك لا مجال لتوجيه الانتقادات النسوية للتصور الإسلامي عن الله.

ومن جهة أخرى لا مجال لفكرة الإلهة النسوية (Goddess) فالله في الإسلام ليس أنثى وليس له بنت ولا ولد. ولكن بعض الأبحاث الكلامية حول صفات الله تشير إلى صفات ذكورية وصفات أنثوية بل ربما تتقدم بعض هذه الأخيرة على سابقاتها.[١٧]

ويشير ولفسون (Wolfson) في بعض أبحاثه عن الكلام الإسلامي[١٨] إلى إمكان المقارنة بين الأبحاث الكلامية الإسلامية حول صفات الله وبين بعض أبحاث التثليث، وعليه فليس فقط لا يوجد في علم الكلام الإسلامي توجيه ذكوري ضد المرأة، بل إن في بعض الصفات الإلهية ما ينسجم مع احترام المرأة وتقديرها، مثل: تقدم صفة الرحمة على صفة الغضب عنده سبحانه وتعالى.[١٩]

النسوية بوصفها إمبريالية ثقافية:

لقد تحولت النسوية لمدة طويلة إلى أداة من أدوات الحرب الاستعمارية ضد الشعوب الأخرى؛ حيث كان يجري العمل على استخدام الشعارات النسوية لتضعيف الثقافات المحلية وفتح أبواب البلاد في وجه الثقافات الوافدة[٢٠].

لقد كانت المعرفة الغربية بالإسلام ضعيفة قبل القرن العشرين، وكانت ترجع في الكثير من أسسها وأركانها إلى رواسب الحروب الصليبية. وواحدة من الوسائل التي استخدمت في الهجوم على الإسلام، مسألة موقف الإسلام من الجنس وما يتعلق به من تعدد الزوجات وحجاب المرأة. وقد ظل كثير من الأوروبيين يعتقدون حتى القرن الثامن عشر أن المرأة لا روح لها بحسب التصور الإسلامي.

وحاولت دوائر الاستعمار الغربي طوال القرن التاسع عشر وبخاصة بريطانيا الاستفادة من هذه الأفكار الخاطئة للتشويش على الثقافة الإسلامية والترويج لبرامجها الخاصة، ومن الاعتقادات التي كانت رائجة في العصر الفيكتوري أن قمة التكامل البشري تقع في بريطانيا ولذلك من الطبيعي أن يحكم الشعب البريطاني غيره من الشعوب الأقل

تطوراً، وقد استفاد المستعمر من النهضة النسوية التي كانت في أوان تشكلها واستخدم شعاراتها للقول بأن المسلمين يظلمون نساءهم؛ ولذلك لا بد من تحضيرهم واستبدال ثقافتهم بثقافة جديدة.

والأمر عينه استخدم في وجه الحضارات الأخرى، ومن الأفكار التي جرت محاولات لترسيخها: أن التخلف الذي تعاني منه المجتمعات الإسلامية يعود إلى تصوراته حول المرأة، والقوانين التي يطبقها عليها، فيما نُظِر إلى الحجاب بوصفه إهانة لها ووجهت لهذا الأمر أكثر سهام النقد، وعليه فإن الخطوة الأولى في سلم الترقي الاجتماعي، باعتقادهم، تكمن في تغيير لباس المرأة واستبداله باللباس الأوروبي.

يقول قنصل بريطانيا في مصر (من عام ١٨٨٢ إلى ١٩٠٧) «**الإسلام يذل المرأة ويحتقرها والمسيحية تعلي من شأنها**» ومن المفارقات المضحكة أن هذا القنصل كان من الدعاة الأوائل والمؤسسين لجمعية رجالية تهدف إلى منع المرأة من حق الانتخاب. وعلى أي حال، من النقاط البارزة في دعاواه حول الإسلام ووضع المرأة في مصر، أن تطور المرأة المصرية مرهون بخلع الحجاب، للّحاق بركب التمدن الغربي الذي يبشر به الاستعمار.(٢١)

وقد ركّزت البعثات التبشيرية المسيحية على وضع المرأة لتبرير عملها في العالم الإسلامي، ومن المؤسف أن ذلك تم تحت حماية ورعاية المستعمر، وروجت النسوية الغربية أيضاً لفكرة نبذ الأحكام الإسلامية الخاصة بالمرأة.

تكتب ليلى أحمد: مضافاً إلى بعثات التبشير المسيحي ورجالَ الدولة، فإن الكثير من المفكرين ومنهم المقيمون في مصر روجوا للفكرة عينها، ومنهم النسويون الأوروبيون الذين حموا ودافعوا عن هدى الشعراوي، ودعوا الفتاة المسلمة إلى تبني التصور الغربي للحجاب، واعتبروا أن الخطوة الأولى في معركة تحرير المرأة هي رفض المفهوم التقليدي للحجاب.(٢٢) وما زالت أصداء هذه الفكرة تتردد حتى عصرنا هذا عند كثير من النسويين المعاصرين الذين يولون مسألة الحجاب أكبر همهم.

وقد تلقف دعوات النسوية في أكثرها حدة مجموعة من الطبقة الحاكمة في المجتمعات الإسلامية، وأكثر هؤلاء هم ممن تلقى تعليمه في المدارس الأوروبية ومنهم: آتاتورك، ورضا شاه، وهم تمسكوا بشعارات النسوية وجعلوها في رأس أولوياتهم. ووافقوا التصور الاستعماري القائل بضرورة استبدال الثقافة الوطنية بالثقافة الأوروبية الوافدة. والفرق الوحيد بينهم وبين المستعمرين أنهم كانوا يصرون على تنفيذ هذه السياسات

بشكل مباشر، وبأيديهم وربما بقسوة أشد. وكانوا يعتقدون أن السبيل إلى الحضارة والرقي يمر بتعميم النموذج الذي تعلمته الطبقة الاجتماعية الحاكمة من الغرب، ويقع اللباس الغربي في رأس قائمة السلوكيات الجديدة ولذلك منعوا اللباس التقليدي في بلدانهم.

أصدر رضا شاه عام ١٩٣٦م، مرسوماً تحت عنوان «تحرير المرأة» ينص على منع الحجاب. وأعطيت المرأة عام ١٩٦٣م، حق المشاركة في الانتخابات، وفي قانون «حماية العائلة» مُنع من تعدد الزوجات، وأعطيت المرأة حق حضانة الأولاد في حالة الطلاق. وقد تغيرت هذه القوانين بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران.

والعلاقة بين النسوية والإمبريالية الثقافية تبدو واضحة في هذا النص للسيدة ساشتيكو مراتا، حيث تقول: أعتقد أن وجهة النظر النسوية حول كثير من الأمور التي وجهت النسوية الغربية نقدها إليه من الإسلام والمجتمع الإسلامي، تقوم على رؤية كونية غريبة عن الرؤية الكونية التي تصدر عنها الأحكام الإسلامية. وتظهر معظم الانتقادات التي وجهت بأنها ذات طابع أخلاقي إصلاحي، وبالتأمل في هذه الإصلاحات التي كانوا يسعون إليها يظهر بوضوح أثر المقاييس الغربية فيها. وهي في جوهرها تدعو إلى فكرة واحدة ألا وهي فرض قيم جديدة، وهي عبارة أخرى عن نقل قيم الرجل الأبيض وتحميله مسؤولية إصلاح العالم؛ ولم يعد يقال لنا إن الصلاح والنجاة في اتباع الدين المسيحي بل في العلم.(٢٣)

وتتابع الكاتبة وتقول ما حاصله: إن اعتقاد النسوية بأن أي طاعة للرجل وانقياد له رذيلة وظلم للمرأة لا بد من التنديد به ورفضه، هذا الاعتقاد يستحق من المسلمين وقفة تأمل ليسألوا أنفسهم: هل يمكن القبول بهذه القيم الأخلاقية المضادة لدينهم؟ إن الإسلام له سلسلة من المقرّرات والضوابط الأخلاقية والفقهية التي شرحها عرفاء الإسلام وفقهاؤه وحكماؤه عبر القرون، ولا ننفي وجود الظلم في المجتمعات الإسلامية، لكن النقطة الأساس هي أن مشكلات المجتمع الإسلامي وهمومه لا يمكن أن ترتفع باعتماد قيم الثقافة الغربية.

إن الجنس المذكر كما الجنس المؤنث سيف ذو حدين، وكل من الجنسين له خصوصياته وقيمه المثبتة والسالبة، ولا يمكن تلطيف التصور البطركي إلا بالنظر إلى إيجابيات العنصر النسائي في المجتمع. ولن يتمكن المسلمون من القيام بهذا الأمر إلا إذا حاولوا ذلك بوصفهم مسلمين لا مقلدين للغرب فحسب.(٢٤)

النتيجة:

أ- نضال الإسلام في مقابل النسوية:

بالرغم من إمكان الاكتفاء بما ذكرناه سابقاً لإثبات الاختلاف الجوهري بين الإسلام والدعوة النسوية، إلا أن الاختلاف بين الاثنين لا يقتصر على تفسير الشريعة أو على طبيعة وحدود الحقوق التي ينبغي أن تتعطاها المرأة، بل الاختلاف يعود إلى جذور أعمق تتعلق بالمسائل الأساس في مجال الميتافيزيقا والفلسفة الاجتماعية والأخلاق والسياسة واللاهوت.

فالمرأة المسلمة لا ترى في النسوية بدعة غربية ترتبط بالمرأة الغربية المرفهة فحسب، بل تمثل النسوية لها أيديولوجية لم تقدم للمرأة سوى حرية مزعومة حولتها إلى شبه رجل، وأداة جنسية (Sex object) له.

والمرأة المسلمة ترى الحجاب رمزاً لعفتها واحتراماً لإنسانيتها، بينما يرى معظم الحركات النسوية في الحجاب رمزاً لسيطرة الرجل على المرأة في المجتمعات الإسلامية.

ب- النهي عن الظلم في الإسلام:

لم ينه الإسلام عن شيء كما نهى عن الظلم. وقد اهتم الإسلام بالموارد التي تتم ممارسة الظلم فيها على المرأة وخصها بالذكر وأبرزها، ولكنه تحدث بشكل عام أيضاً ووضع معياراً واضحاً لتمييز العدل من الظلم وهو الوجدان الأخلاقي للفرد المسلم، والى جانب هذا الوجدان أوضحت الشريعة معيار صحة الفعل ولم تكتف بالصحة بل ميزت بين صحة الفعل، وبين كونه مطلوباً؛ ولذلك لا يمكن اعتبار كل فعل صحيح بنظر الشرع مطلوباً له ومندوباً إليه. ومثال ذلك من العبادات أن الفرد المسلم يمكنه أن يأتي بصلاة جامعة لشرائط الصحة ولكنها مع ذلك قد تكون مكروهة.

ج- سوء الاستفادة من الإسلام لممارسة الظلم:

لقد عرف التاريخ والمجتمعات الإسلامية مواراً من ممارسة الظلم على النساء وبأشكال مختلفة، فحرمت المرأة نتيجة وضعها الاجتماعي من بعض المواقع والمنافع التي ينبغي أن تعطى لها بحسب الشريعة الإسلامية، ومثال ذلك أن بعض الناس يستغلّ دعوة

الإسلام إلى تقنين الاختلاط بين الرجل والمرأة لمنع المرأة من التعلم كما حصل في أفغانستان. وفي بعض الأحيان يستفاد من اسم الشريعة وظاهرها في التعامل مع المرأة، مع أن ذلك يؤدي في كثير من الأحيان إلى تجاوز روح الشرع ومقاصده الأصلية. وهذه الموارد كثيرة بحيث لا نجد ضرورة للإشارة إليها.

وقد استندت الدعوات النسوية إلى هذا النوع من الممارسات لتبرير الدعوة إلى حذف الشريعة نفسها من المجتمعات الإسلامية، ولكن لا بد من القول: بوجود وسائل أخرى لرفع الظلم عن المرأة وأهم وسيلة من هذه الوسائل هي الرجوع إلى روح الشريعة وجوهرها الأصيل. وعدم السماح لأي مغرض باعتبار الشريعة إطاراً فارغاً تمارس من خلاله كل الأعمال السيئة والطالحة باسم الإسلام.

وعلى المسلمين أن يُنَشِّطوا في داخلهم الإحساس بضرورة إصلاح الوضع الحالي لمجتمعاتهم بقدر ما يهتمون بألفاظ الشريعة وظاهرها. ويبدو لي فقدان البصيرة عند الطرفين: النسويون، وأولئك الذين يتمسكون بظاهر الشريعة من أجل تبرير تصوراتهم الظالمة عن المرأة؛ وذلك لأن كلاً من الطرفين لا يرى من أمر الشريعة غير الظاهر فحسب.

وهذا من الأمور التي أشار إليها الشهيد مطهري حيث يقول: إن هذه القسوة والظلامات ما هي إلا نتيجة للتصورات التي يحملها بعض الناس ويحمّلونها للدين، وهي أكثر ضرراً بالإسلام من الدعاية التي يمارسها الغرب.[٢٥]

ولذلك، فهو يدعو إلى تشكيل مؤسسة تهدف إلى تحرير المرأة المسلمة والنهوض بواقعها ،ولكن نهضة إسلامية بيضاء، ليست على غرار النهضة الغربية السوداء[٢٦]

نهضة المرأة المسلمة:

يمكن إطلاق تسمية «نهضة المرأة المسلمة» على كل المحاولات الإسلامية الهادفة إلى رفع الظلم والحيف عن المرأة؛ حيث قامت محاولات عدة في المجال الإسلامي لتحقيق هذا الأمر الأساسي والمهم، وقد كانت بعض هذه المحاولات انعكاساً للنسوية الغربية.

ولم يكن واضحاً تمام الوضوح الأفق الذي يحكم كثيراً من هذه المحاولات، هل هو الإسلام والفكر الإسلامي؟ أم النسوية الغربية وأفكارها بغطاء إسلامي؟ وفي بعض الأحيان يصعب التمييز بين التيارين، فبعض المهتمين بشؤون المرأة المسلمة يعتقدون بأن

التفسير الصحيح للإسلام هو ذلك الذي يؤدي إلى المساواة بين الرجل والمرأة؛ ومن جهة أخرى هناك تيار يؤمن بعدم وجود أي داع أو مبرر لإصلاح الفقه الإسلامي أو تبديل بعض أحكامه. ومن هنا يمكن القول بوجود توجهات مختلفة بين المهتمين بقضايا المرأة المسلمة، منهم من هو مخالف للنسوية الغربية ويسعى بجد للبحث عن الفهم الصحيح للإسلام وللفقه الإسلامي، ولتعاليم النبي محمد(ص)، ومنهم من يتلبس بلباس الأحكام الإسلامية من أجل إجراء وتنفيذ برامج النسوية الغربية ولو على حساب الإسلام وأحكامه ومقرراته في الفقه والأخلاق.

وقد التفت دعاة النسوية إلى أن المرأة المسلمة هي في الغالب وفية للإسلام ومتعلقة بأهداب تعاليمه؛ ويوجه بعضهم هذا الأمر بأن المرأة المسلمة قد تكون مخدوعة وغير عالمة بأن كثيراً من أحكام الإسلام التي تحترمها هي ضدها وتؤدي إلى خلاف مصلحتها ومن هؤلاء ليلى أحمد.[٢٧] ولا شك في غرابة هذا التبرير، فأي امرأة مسلمة لا تعرف بتفاوت الحصة بين الرجل والمرأة في الإرث مثلاً؟

وعلى أي حال، يعترف بعض النسويين بأن بعض الوقائع الاجتماعية أو السياسية التي حصلت في بعض المجتمعات الإسلامية انتهت إلى نتائج كانت في صالح المرأة كالثورة الإسلامية في إيران، فإنها نقلت المرأة الإيرانية من حال إلى حال.[٢٨]

ويبدو أن هالة أفشار تعتقد بأنه إذا كان الإسلام يحقق شعارات النسوية فليكن ذلك باباً من أبواب المصالحة معه، ولا ضير عندها في ذلك. وتشترك مع أفشار الكاتبة الإيرانية زيبا مير حسيني، حيث تقول:... ودليلي هو أنه وبخلاف ما كان يقال سابقاً أو ما زال يقال حتى الآن، فإن الثورة الإسلامية حملت شيئاً من الحرية للمرأة، بمعنى أنها مهدت الطريق لوعي نسوي عام.[٢٩]

ويبدو من هذا النص لزيبا مير حسيني اتفاقها مع زميلتها أفشار حول عدم المنع من المصالحة مع الإسلام، كما يبدو أنها تعتبر كل محاولات تحسين وضع المرأة نسوية، سواء أحملت الأيديولوجية النسوية أم الإسلام...

وعلى أي حال، في الختام يمكننا التفاؤل والاستبشار بكل محاولات رفع الظلم عن المرأة، شرط أن يتخذ موقف من كل هذه الموضوعات المطروحة للبحث، وأن لا يضعف بنية العائلة المسلمة، ولا يخل بالطاعة المبنية على المحبة والعشق لله تعالى.

الهوامش

(١) W.V. Quine, Quiddities, (Cambridge: Harvard University Press, 1987), Pp.207-208.

(٢) وقد عرّف معجم دودن Duden الألماني النسوية بأنها: تيار في داخل الحركة النسائية يسعى إلى تطوير فهم جديد للمرأة، وهدم الفوارق التقليدية في الدور الاجتماعي لكل من الجنسين.

(٣) See: A.NYE, Philosophy and Feminism: At the Border, (New York 1995.)

(٤) Marry Ellen Waith, A history of Women Philosophers, 3Vols, (Dordecht, 1987-1991.)

(٥) Allison Jagger, "Feminist Ethics", in: L. Becker and C. Becher, eds, The Encyclopedia of Ethics, (New York, Garland, 1992.)

(٦) Sarch Lucia Hoagland, Lesbian Ethics.

(٧) Carol Gilligan, in a different voice: Psycholigical theory and womens development, (Cambridge: Harvard University Press, 1982.)

(٨) Mary Daly, Beyond God the Father, Toward a Philosophy of women's Liberation, (Boston 1973.)

(٩) Elisabeth Grossman, In Memory of Her: A Feminist theological Reconstruction of Christian Origins, (New York, 1983.)

(١٠) يشار في هذا المجال إلى شخصيات من قبيل: Elisabeth Grossman, Rosemary Reuther, Cathrina Halkes, Elisabeth Molt Mann Wendel

(١١) Beyond God the Father, Toward a Philosophy of women's Liberation, Pp.19

(١٢) Luce Prigaray, Sexes and Genealogics, Lr. Gillianc. Gill (New York,: Columbia, University press, 1993.)

(١٣) Ibid. P.72.

(١٤) ولكن لا بمعنى أنهّ خنثى بل بمعنى أن هذه الأوصاف لا تتناسب مع مقامه عز وجل.

(١٥) Elisabeth Motmann Wendel, "Werkstatt ohne angest", forum Religion, 3/1987,34, Cited in Manfred Houke, God or Goddess?, Pp.95.

(١٦) W. Morgan Shuster, the strangling of Persia, Pp. 197-198.

(١٧) Sackiko Murata, The Tao of Islam, especially, Part 2.

(١٨) H.A. Wolfson, the Philosophy of the Kalam, (Cambridge Harvard, 1976.)

(١٩) Sackiko Murata, The tao of Islam, Pp. 55, 203-222.

(٢٠) لقد عالجت الباحثة ليلى أحمد هذا الموضوع بالتفصيل في كتابها Woman and Gende in Islam فمن أراد فليراجع.

(٢١) مصدر سابق، ص ١٥٢-١٥٣.

(٢٢) Leila Ahmed, op. Cit, p.154

(٢٣) Sachiko Murata The Tao of Islam, p.4

(٢٤) Ibid, p. 323.

(٢٥) Ibid., p.306.

(٢٦)مرتضى مطهري، نظام حقوق زن در إسلام، ص٥٩.

(٢٧) ليلى أحمد، مصدر سابق.

(٢٨) Haleh Afshar, "Woman and politics of fundamentalism in Iran", in: Haleh Afshar, ed. Woman and politics in the third world, Pp. 126.

(٢٩) Khomeini Iran, in: Haleh Afshar, –Hosseini, Woman and Politics in Past –Ziba Mir Woman and politics in the Third World, Pp. 143.